الفصل السادس

انعدام التعليم
رمز لغربة نظام ما قبل الجمهورية عن العصر الحديث

كان التعليم في مملكة الظلام شبه معدوم، وإذا وجد القليل النادر فيها فهو يقتصر على قراءة القرآن وشيء من علوم الدين في حلقات المساجد فيما سماه إسماعيل الأكوع "هجر العلم ومعاقله"[155] في المدن والأرياف، التي كانت ترعاها مبادرات الأهالي وفي بعض الحالات القليلة أوقاف نذرها أصحابها قديما للمحافظة على التعليم الديني ومنعه من الاندثار. فلم يكن التعليم يدخل في اهتمام الحاكمين، ولم تكن غلبة الأمية على مواطنيهم تؤرقهم وتحثهم على بذل الجهد للتخفيف من وطأتها. وكانت بعض الأسر المحظوظة والبارزة تحرص على تعليم أبنائها القرآن وبعض علوم الدين والعربية بنفسها أو عند فقهاء احترفوا هذا العمل كسبا للعيش، لكي تحافظ على امتيازاتها الاجتماعية ولكي تواصل كسب عيشها من تقديم خدمات معينة، كإمامة الصلاة، وخطبة الجمعة، وتقسيم المواريث، وتسجيل عقود بيع الأراضي وشرائها وعقود النكاح والطلاق، وتولي الوظائف الحكومية القليلة المتاحة إن وجدت.

وقد لاحظ زوار اليمن من الأجانب انعدام المدارس في اليمن. فهذا أمين الريحاني يؤكد أنه لم ير مدرسة في طول البلاد وعرضها مع أنه قطعها من حدود المحميات البريطانية حتى صنعاء، مما جعله يستنتج أن الإمام لا يحب تعميم التعليم[156]. ولن نذهب بعيدا في تتبع انعدام المدراس في اليمن، بل سنقتصر على حال التعليم قبل قيام الجمهورية مباشرة. فقد كانت توجد في صنعاء مدرسة متواضعة للأيتام افتتحها الأتراك قبل مغادرتهم اليمن وورثها الإمام ولم يلغها كما ألغى الكثير من الإصلاحات التي كانوا قد أدخلوها إلى البلاد. ومع أن

---

[155] انظر إسماعيل الأكوع، هجر العلم ومعاقله في اليمن، 4ج.

[156] أمين الريحاني، نفسه، ص. 162.

تسمية "مكتب الأيتام" أو "مدرسة الأيتام" توحي بأن طلابها يجب أن يقتصروا على الفقراء الذين لا عائل لهم، كان أغلب الشعب اليمني تحت حكم الإمام فقيرا ويتيما، فكان التحاق أي طفل بها حلما يراوده ويراود أهله الذين يتابعون الإمام للحصول على أمر باعتبار طفلهم يتيما يستحق الالتحاق بمدرسة الأيتام. وكان الالتحاق بها صعب المنال وغير متاح إلا لمن يناله الحظ، حتى لو كانت هذه المدرسة تجلد الطفل وتدمغه باليتم ليل نهار.

ووُجِدَت إلى جانبها مدرسة علمية تخرِّج الكتبة في المحاكم والإدارات في المملكة وقد يتولى المحظوظون ممن تخرجوا منها وظيفة حاكم شرع. كما وجدت في صنعاء وفي تعز مدرستان ثانويتان لتخريج بعض الموظفين، لكن مستواهما ونوعية التعليم متدنيان. كما وجدت مدرسة ابتدائية في الحديدة.

فهذا أحمد حسين المروني الذي التحق بمدرسة الأيتام مبكرا ولم يكن يتيم الأبوين، يحكي قصة حلمه بالالتحاق بهذه المدرسة ومتابعته لوالده كي يحقق له حلمه، وظل الأب يتابع المسئولين طويلا حتى نجح في تسجيل ابنه في مدرسة يفترض بها أنها مخصصة للمحرومين ممن لا عائل لهم. ولكن في اليمن اليتيمة يصبح التسجيل في عداد الأيتام حلما للمحرومين من التعليم. ويقول المروني إن بعض أهل صنعاء لم يتحمسوا لإلحاق أولادهم بمكتب الأيتام وكانوا يفضلون القراءة في المساجد أو الكتاتيب.

وحين نجح الأب في استصدار الموافقة، استصحب ابنه الطفل ليكون في عداد الأيتام. يقول المروني: وفي الصف الأول "وجدت ما يقرب من ثلاثين طالبا كانوا قد سبقوني، بعضهم من صنعاء والأكثرية من الريف. وكنا نجلس على الأرض إذ لم تكن المقاعد قد وجِدت إلا للصفوف المتقدمة". وكانت السبورة هي المرجع لتلقي الدروس، فلا وجود للمنهج الدراسي أو الكتب المدرسية أو للوسائل التعليمية غير السبورة والعصا[157]. ويصف المدرسة والدراسة قائلا: كان الصف الأول "يضمني وخمسين طالبا، ومن منا إلا وله مرض معلوم، فهذا في رأسه (قَرَع) وذاك أجرب، وذلك مصاب بالسعال الديكي، وآخر يُذِيبُه السل ببطء، كل هذا ونحن في غرفة تتنفس برئة واحدة تطل على مراحيض المدرسة، ومساحة الغرفة لا تتجاوز العشرين قدما (مربعا)"[158].

---

157 أحمد حسين المروني، الخروج من النفق المظلم . معالم سيرة ذاتية، ص. 26 . 27.

158 نفسه، ص. 68 . 69.

وهذا مُحَمَّد الفُسَيِّل يقول إنه التحق في طفولته بمعلامة أهلية كان المعلم فيها شديدا ففر منها. وأصر بعد سنوات من التعب على "أن يدخل مكتب الأيتام، فبكت الأم وفزعت عليه من المرض والعدوى، ومن القمل والأوساخ ولكنه صمم.... قرأ خلال تلك السنوات القرآن وشيئا من الحساب وفروع الدين والنحو وبعض المحفوظات من الشعر"[159]. ويشير إلى أن أحد أساتذته ممن كان عضوا في أول بعثة عسكرية للدراسة في العراق ولم يمكَّن من الالتحاق بالجيش، قد عمل معلما وكان معروفا بالاستنارة، ولعله أحمد الحورش، وأتاح له الوصول إلى مكتبته الخاصة من الكتب التي جلبها معه من رحلته إلى العراق وعودته عن طريق دمشق وبيروت ومصر، ليقرأ فيها ويتأثر ويستنير. لكن هذا المورد للقراءة قد انقطع بهرب هذا الأستاذ لمواصلة الدراسة في مصر.

وفيما بعد، أصبح ثلة من الرواد الذين تخرجوا من مدرسة الأيتام من المثقفين ومن المناضلين في سبيل تحرير اليمن من اليتم العام ومن البؤس الذي جلبه لها إمام لا يرعى مصالح مواطنيه، ولا يعرف سوى الجباية دون أن ينفق من الجبايات الكثيرة على الخدمات العامة كالتعليم العام والرعاية الصحية للمواطنين المحرومين من أية رعاية من كل نوع. كما أن هذه المدرسة قد استقبلت بعض المعلمين الذين كانوا أول من خرج من اليمن للدراسة في الخارج مثل محيي الدين العنسي وأحمد الحورش، ودخلوا السجن بسبب استنارتهم واضطروا للهرب من جديد من اليمن لمواصلة الدراسة بعد أن دفعتهم استنارتهم لعدم الاكتفاء بما تعلموه في العراق ومن الحياة، وعادوا فيما بعد من مصر ليشاركوا في الحركة الدستورية ويتعرضوا للإعدام على أيدي الطاغية أحمد حميدالدين عام 1948.

بل إن علي عبدالمغني، أهم قادة تنظيم الضباط الأحرار الذين قاموا بالثورة في 26 سبتمبر 1962 وأعلنوا الجمهورية، قد بدأ دراسته في مدرسة الأيتام، وحين قامت الحركة الدستورية عام 1948 كان طالبا في هذه المدرسة عمره أحد عشر عاما لكنه كان يحظى برعاية حسين الكبسي، وزير خارجية الحركة الدستورية الذي كان ممن أعدِموا بالسيف عند فشل الحركة. وهو ما رسَّخ في وعي علي عبدالمغني ولا وعيه الشعور بحاجة اليمن للتغيير. فقد شارك في عام 1956 في التظاهر ضد العدوان الثلاثي على مصر ودخل سجن الرادع

---

[159] أحمد المعلِّمي وآخرون، من سجن حجة . ثوار وثورة 1948، ص. 50 . 51.

في صنعا، وشارك سرا في حركة البناء الثقافي المستنير، كما تظاهر سنة **1958** تأييدا للوحدة بين مصر وسوريا. والتحق سنة **1958** بالكلية الحربية، وتخرج منها ليعمل بنشاط لتأسيس تنظيم عسكري سري يتكون من الضباط الشباب هو "تنظيم الضباط الأحرار"، وبرز باعتباره من يقوم بمهمة التفاوض مع القوى السياسية ومع الضباط المستنيرين الكبار لدعم التحرك لتغيير النظام السياسي المتهالك، وقام بمراسلة الزعيم العربي جمال عبدالناصر باسم تنظيم الضباط الأحرار اليمنيين للحصول على دعم لقيام الجمهورية. وحين قامت الثورة استشهد وهو يقود حملة عسكرية نحو مارب بعد قيام الجمهورية بأيام قليلة وعمره لا يزيد عن خمس وعشرين سنة.

والواقع أن دور هذه المدرسة في بث بذور الاستنارة في واقع اليمن المظلم ما يزال في حاجة إلى دراسة وتسجيل إنصافا للرواد الأوائل الذين أدركوا منذ وقت مبكر أنه لم يعد بإمكان اليمن الصبر على هذا الحرمان من جميع الحقوق ومن جميع أنواع الخدمات التعليمية والصحية والاجتماعية والثقافية، ولا أن تبقى خارج العصر الذي تعيش فيه، وأن مواصلة السير على هذا الطريق المغلق يوشك أن يقودها على طريق الانقراض.

وفي وزبيد كان لبعض المساجد أوقاف يُصرف منها على عدد قليل من المعلمين شبه المتطوعين الذين يعقدون حلقات لتعليم علوم الدين واللغة العربية يحضرها بعض الطلبة المحليين، وقد يعطى القليل من المساعدة لطلبة قادمين من الريف منقطعين للدراسة، ويساهم بعض الأهالي بتقديم القليل من الإعاشة كعمل خيري، وهكذا يتوفر لبعض الطلبة عيش الكفاف.

وهو ما كان يحدث في صنعاء حيث كان لبعض الجوامع أوقاف تُقدِّم القليل من الحبوب مساعدة للمعلم وللطلبة القادمين من الريف، وأحيانا تقدم بعض الأسر رغيفا من الخبز لطالب معين لمساعدته على الدراسة، ويحترف بعض الطلبة والمعلمين في الجوامع تلاوة القرآن مقابل الحصول على قدر يسير من النقود، وهي مساعدة لا تكفيهم ولكنها في الغالب تحافظ على بقاء نظام تعليم قديم ومتوارث يستفيد منه بعض طلبة المدينة في ظل غياب النظام التعليمي العام، وهو نظام يدل على بؤس التعليم وفقره أكثر مما يدل على توفر فرص التعليم لمن يريد، ناهيك عن أن يقدم خدمة التعليم للجميع.

بشائر الخروج من السجن الكبير

كان عدد قليل من المستنيرين قد بدأوا الطرق على جدران السجن المغلق على اليمنيين في مملكة الظلام، وفي طليعتهم مُحَمَّد المحلوي. وتأثر به فيما بعد أحمد المطاع الذي سيدخل السجن بسبب آرائه المستنيرة قبل أن ينضم إلى جماعة مجلة "الحكمة اليمانية" التي أصدرها المستنيرون مستغلين رغبة عبدالله بن الإمام يحيى، باعتباره وزيرا شكليا للمعارف ومسئولا عن التعليم غير المتوفر أصلا إلا ما ندر، ورغبته في منافسة أخيه الأكبر منه الذي كان أقوى أبناء الإمام يحيى وفرض نفسه بأسلوب الغلبة وليا للعهد ونائبا للإمام في تعز، أكبر مراكز الجباية في مملكة الظلام والقريب من مستعمرة عدن باعتبارها منفذ الدخول والخروج وميناء التصدير والاستيراد ومصدر التجارة التي تدر الكثير من الأموال على من يتولى شئون تعز.

وكان عبدالله بن الإمام يحيى قد خرج في وفود رسمية ومثَّل البلاد في الأمم المتحدة وفي غيرها ولمس الفارق الكبير بين بلاده والعالم من حوله، بما في ذلك العالم العربي، وألحت عليه الحاجة خلال رحلاته إلى مترجمين ومساعدين لا يتوفرون بين سكان بلاده، وأراد أن يكون أكثر انفتاحا من أخيه المتزمت والمنغلق أحمد، بثقافته التي اكتسبها خلال تربيته في معاقل منعزلة مغلقة شمال صنعاء.

ولذلك رعى صدور "مجلة الحكمة اليمانية" ودعمها عند أبيه المنغلق المتشدد الشكاك في الجميع من حوله، فصدر العدد الأول منها سنة 1938 واستقدم للإشراف المباشر على تحريرها شابا مستنيرا لم يكن طرفا في الملابسات والنقاشات في صنعاء ومن ثم فصفحته بيضاء عند الإمام ورجاله ما دام غير معروف كثيرا سوى أنه ممن يهتم بالتواصل مع الثقافة والأنشطة الثقافية خارج اليمن ويحاول أن يكتب عن حضارتها ودرورها الرائد في التاريخ.

وقد نتج هذا عن سعي عدد من المستنيرين لكي يعبروا عن أنفسهم من خلال اللقاءات والنقاشات، وشعورهم بالحاجة إلى أن يجدوا وسيلة لكتابة أفكارهم المستنيرة وإخراجها من الغرف المغلقة إلى جمهور قراء يستجيب لها ويوسع دائرة تأثيرها بعد أن كانت المراسلة فيما بينهم واللقاءات النادرة وسيلتهم لتبادل وجهات النظر والمطبوعات المسربة سرا عبر عدن.

وكانت الخطوة الأولى التي أقنعوه باتخاذها أن يقترح على والده إنشاء لجنة لكتابة تاريخ اليمن، وهي اللجنة التي نجح المستنيرون في أن يضموا إليها أحمد المطاع وأحمد عبدالوهاب الوريث. أما الخطوة الثانية فكانت إقناع الإمام الشكاك المتزمت بإصدار مجلة ثقافية سميت "الحكمة اليمانية" فقبِل إصدارها على أن تكون تحت رقابة الأمير عبدالله وإشرافه وأن تكون امتدادا لدور صحيفة "الإيمان" الرسمية المدافعة عن النظام. لكن المستنيرين كانوا يرون فيها فرصة للتوعية والتنوير ونشر الأفكار الإصلاحية ولو بصورة غير مباشرة.

وقد اتخذ المستنيرون طريق الدعوة الهادئة إلى الإصلاح دون استفزاز النظام أو القوى التقليدية ذات التأثير الكبير. وصدر العدد الأول في ديسمبر **1938**/يناير **1939** بافتتاحية كتبها أحمد الوريث، الذي كان يشرف على صدور المجلة، وطبعت في المطبعة الوحيدة التي تطبع صحيفة الإيمان ولا تستخدم إلا بإذن من الإمام. وكان حجم المجلة صغيرا وإخراجها متواضعا، وتبلغ صفحات العدد اثنين وثلاثين صفحة من الحجم الصغير. ولأنها مجلة حكومية، كانت الحكومة تُموِّلُها وتحصل على القليل من الاشتراكات وكانت توزع بالبريد إلى الحديدة وتعز وذمار وإب إلى جانب توزيعها في صنعاء.

وقد كتب الوريث في افتتاحية العدد الأول يقول إن المجلة "تبحث في الشئون الإسلامية والإصلاحية والمسائل العلمية والمباحث الأدبية والفصول التاريخية والإخبارية وتغذيهم (قراءها) بلباب آراء المفكرين، وعصارة أقوال الكاتبين، ونتيجة مقدمات الباحثين، وتكون حلبة سباق تتبارى فيها أقلام بعض أدباء اليمن الناهضين، فتشحذ هممهم، وتصقل من أفكارهم، وتقوي من عزائمهم، وتنمي فيهم ملكة البيان"[160].

وصدر من المجلة ثمانية وعشرون عددا خلال الفترة من ديسمبر **1938**/يناير **1939** وحتى العدد الأخير في فبراير/مارس **1940**.

وتنوعت موضوعاتها لتشمل النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتاريخية والأدبية وآيات قرآنية وأحاديث نبوية وأقوال مأثورة ونصوص القرارات والأوامر الرسمية، ونُشِرت فيها مقالات طويلة مسلسلة في حلقات. فكتب الوريث مقالات في حلقات بعنوان

---

[160] نقله عن العدد الأول من المجلة: سيد مصطفى سالم، مجلة الحكمة وحركة الإصلاح في اليمن، ص. 24 . 25.

"الإصلاح" وكان يقصد الإصلاح الإسلامي على أمل أن يفهم القراء أن الإصلاح في اليمن ينبغي أن يكون مشمولا حُكما بهذه الدعوة. وكتب عبدالله العزب مقالات عن "تاريخ الأدب العربي"، وكتب أحمد الحورش مقالات حول "علم التربية"، وهو علم لم يكن قد تحدث عنه أحد في اليمن قبل الحورش المتخرج من بغداد. وحين توفي الوريث حل محله أحمد المطاع في الإشراف على تحرير المجلة وواصل كتابة المقالات تحت عنوان "الإصلاح". وكتب محيي الدين العنسي مقالات بعنوان "اليمن السعيد بين الماضي والحاضر". وتناول في مقال آخر عرضا نقديا لديوان أحد الشعراء اليمنيين.

لكن المجلة لم تستطع أن تواصل الصدور، فقد توقفت في عامها الثالث، لأن الإمام عُرِف بخشيته وتوجسه من الجديد، وإذا كان قد وافق على صدور المجلة فإنه ظل يراقبها ويتحين الفرص للانقضاض عليها بحجج مختلفة. وهكذا ليس غريبا أن بعض محرري المجلة مثل أحمد المطاع ومحيي الدين العنسي وأحمد الحورش قد أعدِما بالسيف في الحركة الدستورية التي شاركت فيها حركة الأحرار المعارِضة بعد سبع سنوات من إيقاف المجلة. بل إن الإمام لم يقبل في البداية دخول أشخاص مثل المطاع والعزب ضمن سكرتارية المجلة، لكنهما تسربا إلى الكتابة للمجلة بداعي الحاجة إليهما لضمان مواصلة صدروها، وفرضا وجودهما من خلال قدرتهما على الكتابة وسد العجز الذي كانت تواجه من حيث الكُتَّاب الأكفاء، حتى نجحت العناصر المستنيرة في الأخير في السيطرة على المجلة بعد وفاة الوريث وتولي المطاع الإشراف على التحرير. وكانت النهاية فاجعة حيث انتهى الأمر، كما أشرنا آنفا، بسحق محرري المجلة والانتقام منهم شر انتقام.

لقد حاول المستنيرون من خلال الاقتراب من الأمير عبدالله وإقناعه برعاية مجلة "الحكمة" فتح ثغرة ولو بسيطة في جدار الجهل السميك، للسماح ببصيص من نور المعرفة، للتعبير عن همومهم الثقافية الوطنية واتخاذها سبيلا للمطالبة الخافتة بالإصلاح كبداية على طريق التغيير الضروري المنتظر. لكن الواقع كان أعتى من كل المحاولات، وكان الظلام كثيفا بحيث استحال اختراقه. ولأن إيمان المستنيرين كان أقوى من نظام الجهل والعزلة والانغلاق، واصلوا تحدي المستحيل وشاركوا في الحركة الدستورية التي جسدت توقهم للتغيير بأية وسيلة، وانتهى بعضهم قتلى بسيف الجلاد والبعض دخلوا السجون الرهيبة ليعيدوا الكرَّة فيما بعد، ويواصلوا رسالتهم النبيلة الهادفة لتحرير شعبهم، إلى أن شاركوا أخيرا في التغيير الجمهوري.

وهكذا فشل مشروع إصدار "الحكمة" لكن مشروع التغيير عاش وترعرع سرا وعلانية حتى فاز في النهاية وتحقق له النجاح.

بعثة العراق وبعثة الأربعين

كانت الدراسة خارج اليمن أمرا خارقا للعادة، ولا تتاح إلا لمن يُقدِم على مغامرات خطيرة تحمِّله الكثير من المشقات، وتواجهه المصاعب. ولذلك كان الخروج للدراسة نادرا، وكان من يريد أن يتعلم في الخارج يقوم بمغامرة غير عادية، كأن يهرب من بلاده دون وثائق تعرِّف به وتحدد هويته وسنه ومكان ولادته. فهذا أحمد مُحَمَّد نعمان حين هرب للدراسة في مصر سنة 1938 خرج للحج وتعاطفت القنصلية المصرية في جدة مع رغبته في الدراسة فزودته بوثيقة هوية مصرية[161] ليستطيع التنقُّل ودخول الأراضي المصرية. وكانت الظروف التي أحاطت بإرسال أولى البعثات الدراسية إلى الخارج غريبة وتكاد تأتي من باب إحراج السلطات ودفعها دفعا لاتخاذ قرارات لا تميل إليها.

يقول أحمد حسين المروني، الذي كان عضوا في أول بعثة خرجت من اليمن سنة 1936 للدراسة العسكرية في العراق، عن الملابسات التي أحاطت بإرسال البعثة: "وكان سبب إرسال هذه البعثة إلى العراق هو أن الوجيه الفاضل حسين بن صالح الحِبشي، الذي كان مغتربا في جاوا (اندنوسيا)... ترك جاوا وجاء بأهله وأولاده إلى صنعاء ليقيم... وألحق أولاده بمكتب الأيتام (لأنه لم يجد مدرسة أخرى يلحق بها أولاده). وعندما أنهوا مكتب الأيتام (انتهوا من الدراسة فيه) احتار والدهم وفكر في إلحاقهم بأية مدرسة ذات منهج أرقى من الابتدائية". وقد حصل له صديقه مُحَمَّد سري شائع (الذي كان فيما مضى ضابطا تركيا وله أصدقاء في العراق) على منحة لعشرة طلاب يمنيين إلى العراق للدراسة على نفقة العراق. ولما استأذن عبدالله بن الإمام تحدث مع والده الإمام فكان الرد أنه لا بد أولا من إرسال عشرة طلاب آخرين قبل إرسال أولاد الحِبشي.

ومما يدل على عدم رضا الإمام على سفر هذه البعثة للدراسة في الخارج، مع أنها تذهب إلى بلد عربي إسلامي، مقابلته لرئيس البعثة محيي الدين العنسي وتحذيره له بالقول:

---

[161] علي محمد عبده، لمحات من تاريخ حركة الأحرار اليمنيين، ج1، ص. 127.

"إنكم ستذهبون إلى بلاد فيها الخمر كالسيول، وفيها أبناء الحرام كالغنم، واسترسل قائلا: والله لو يبلغني عن أحدكم ما يسيء ما معه إلا الموت، وتمتم بكلام كله سخط وغضب"[162].

وهكذا شعر الإمام بالإحراج فأرسل بعثة طلابية عسكرية، تعرَّض بعضهم بعد عودتهم للسجن عدة سنوات واشتركوا في حركة 1948 الدستورية وفي حركة 1955 وفي ثورة 26 سبتمبر 1962، منهم أحمد المروني نفسه الذي سيصبح في عهد الجمهورية وزيرا للتربية والتعليم ووزيرا للإعلام، وعبدالله السلال الذي سيكون أول رئيس للجمهورية في اليمن، وحسن العمري الذي سيصبح فيما بعد نائبا لرئيس الجمهورية وقائدا عاما للقوات المسلحة ورئيسا للوزراء، وكان على رأس البعثة محيي الدين العنسي الذي سيشارك في الحركة الدستورية وسيعاقب بالإعدام بالسيف.

وبعد أشهر من وصول البعثة الأولى إلى بغداد وصلت بعثة أخرى، ستةٌ من أعضائها أولاد الحِبشي الذي حصل على الموافقة على المنحة الأولى ولم يُسمح لأولاده أن يسافروا أولا. ومن أعضاء البعثة الثانية أحمد حسن الحورش الذي كان أكثر من تأثر بالأفكار المستنيرة وقرأ كثيرا من الكتب وعاد ومعه بعضا من الكتب، ثم هرب إلى مصر للدراسة وعاد ليشارك في الحركة الدستورية سنة 1948 ويُعدَم في حجة. ثم وصلت بعدهم بفترة وجيزة بعثة من أشهر أعضائها أحمد يحي الثلايا الذي سيقود سنة 1955 حركة عسكرية لنقل الإمامة من الإمام أحمد إلى أخيه عبدالله ويعدم معه بعد فشل تلك المحاولة، وحمود الجائفي الذي سيصبح بعد قيام الجمهورية رئيسا للوزراء سنة 1964[163]، وكذلك سلام عبدالله الرازحي ومُحَمَّد عبدالولي نعمان اللذين أصبحا وزيرين في عهد الجمهورية.

والحقيقة أن استنارة بعض أعضاء هذه البعثات الثلاث التي تشكل في الواقع بعثة واحدة بالنظر إلى قصر الفترة الفاصلة بين وصول الواحدة والتي تليها، قد كانت عميقة ومدهشة بحيث ظل بعض أفرادها يثابرون في العمل من أجل التغيير ويدخلون السجون ويخرجون ليواصلوا نضالهم دون تراجع أو إحباط كبير يدفعهم إلى التخلي عن قناعاتهم، على الرغم من شدة بطش النظام. وبعضهم قدم حياته ثمنا لقناعاته وأُعدِم بالسيف، لكن بعض

---

[162] أحمد المروني، نفسه، ص. 33.

[163] أحمد المروني، نفسه، ص. 60 . 61.

من ظل منهم على قيد الحياة لم يتراجع ولم تتزعزع قناعاته حتى نجحت عملية التغيير وشارك في العمل الثوري حتى آخر لحظة، مثل السلال وغيره من الرواد الأوائل.

ومضى وقت طويل نسبيا بعد عودة من بعثوا إلى العراق دون إرسال بعثة أخرى. وربما كانت استنارة بعض العائدين من هؤلاء المبعوثين مع أنهم جميعا قد درسوا دراسات عسكرية، وما حمل بعضهم من كتب مستنيرة وما شاركوا فيه من مناقشات معتادة في مقايل القات وتكشف عن توجهات المرء الفكرية، قد دفعت الإمام لصرف النظر عن إرسال بعثات للدراسة. وفضل بدلا من ذلك أن يأتي ببعض المدربين العسكريين العراقيين إلى اليمن ليدربوا الجيش تحت رقابة الإمام في المجتمع اليمني المغلق والمعزول بدلا من إرسالهم إلى مجتمعات عربية منفتحة نسبيا. لكن حتى هذه المحاولة لم تفلح في صد توق الطلبة إلى أفكار الحرية والتغيير، وإلى أن يتأثروا ببعض القادمين من المدربين، ويشاركوا في محاولات التغيير ويدخلوا السجون، ووصل الأمر إلى حد أن أحد المدربين العراقيين وهو جمال جميل قد شارك في الحركة الدستورية وأصبح بدعم من تلاميذه العسكريين مديرا لأمن صنعا وتحمل مسئولية حماية الأمن واصطدم مباشرة مع القوى التقليدية ونُفِّذَ فيه الإعدام بالسيف بعد سقوط الحركة الدستورية. كما شارك بعض تلاميذه في محاولات التغيير ودخلوا السجون أو هربوا وتشردوا حتى عادوا ليشاركوا في البناء الجمهوري الجديد بعد قيام الجمهورية، ومنهم مُحَمَّد علي الأكوع الذي شارك مع أحمد الثلايا في حركة 1955 وهرب إلى عدن ليلتحق بحركة الأحرار المعارِضة إلى أن أصبح أحد وزراء الداخلية في الجمهورية الثانية[164].

وفي سنة 1947 حدثت ملابسات مشابهة لما حدث عند إرسال بعثة إلى العراق. فقد سعى أحد اللبنانيين، الذين عملوا بالترجمة للأمير عبدالله بن الإمام في مهماته الرسمية إلى الخارج، لإقناع الأمير المسئول عن المعارف بضرورة أن يتعلم بعض الطلبة اليمنيين تعليما حديثا في لبنان ليساعدوا الأسرة الحاكمة في إدارة البلاد، أو على الأقل لمساعدة الوفود التي تذهب إلى الخارج في الترجمة. وتولى الأمير، باعتباره مسئولا شكليا عن التعليم، إقناع والده بحاجة البلد إلى إرسال بعثة للدراسة في الخارج واختار لهم مدرسة "المقاصد الإسلامية" في

[164] عبدالله البردوني، اليمن الجمهوري، ص. 431.

لبنان لتبديد أي شكوك لدى الإمام بأن هؤلاء الطلبة سيذهبون إلى مدارس تعلم الفساد والتمرد.

وقد تم اختيار أربعين طالبا أغلبهم من صنعاء وبعضهم من تعز والقليل منهم من ذمار والحديدة. فذهبوا إلى لبنان ولكن الإمام أحمد الذي تولى الإمامة بعد مقتل أبيه سنة **1948**، أي بعد سنة من سفر هذه البعثة، اتهم لبنان باستقبال الجزائري فُضِيل الورتلاني، أحد الذين شاركوا في الحركة وتمكنوا من الخروج مع مُحَمَّد محمود الزبيري من صنعاء بمعجزة قبل سقوطها، ولذلك عاقب الطلبة بنقلهم من لبنان إلى مصر، فكان هذا النقل لطلبة في مرحلة المراهقة من مدن لبنانية ثانوية مثل صيدا وطرابلس إلى مصر، بمثابة نقل إلى مرجل الثورة العربية الذي بدأ بثورة **23** يوليو **1952** وصعود نجم جمال عبدالناصر كزعيم للأمة العربية، فكان الإمام بهذا القرار كمن يتقي الشمس بكفه.

إذ سرعان ما عاد الزبيري من منفاه في باكستان إلى مصر وأعاد تأسيس حركة المعارضة التي كانت قد سُحِقت بعد فشل الحركة الدستورية، فكان أغلب هؤلاء الطلبة أكبرَ مَدَدٍ لحركة الأحرار وبعضهم تجاوزوها واتهموها بأنها إصلاحية ولا تسعى للتغيير الجذري. وحين قامت الجمهورية اعتمدت على الكثير من هؤلاء الطلبة المؤهلين في البناء الجمهوري الجديد، من بينهم محسن العيني الذي كان وزيرا للخارجية ورئيسا للوزراء لعدة مرات، وحسن مكي الذي أصبح وزيرا أكثر من مرة ونائبا لرئيس الوزراء ورئيسا للوزراء ومن القيادات الاقتصادية والتنموية، وأحمد المحني الذي أصبح وزيرا، وعبدالله جزيلان الذي انطلق التحرك العسكري لقيام الجمهورية من الكلية العسكرية التي كان مديرها، وعبداللطيف ضيف الله الذي كان من أهم الضباط العسكريين الذين قادوا تنظيم الضباط الأحرار وأصبح وزيرا ورئيسا لأركان الجيش، وعبدالله الكُرشُمي الذي أصبح وزيرا ورئيسا للوزراء، وغيرهم.

وحين اكتشف الطاغية أن بعض الطلبة قد شبوا عن الطوق وبدأوا التأثر بالأحداث الملتهبة في مصر بعد ثورة يوليو وبروز قيادة جمال عبدالناصر، وأراد معالجة هذا الوضع، لم يكن بمقدوره اتخاذ قرار إعادتهم واعتقالهم، لأنهم لن يعودوا. وحتى حين جرب باتخاذ قرار عودة بعضهم وقطع المنحة عنهم، مثل عبدالرحمن أحمد نعمان وفيما بعد محسن العيني ومُحَمَّد الرعدي ويحيى جغمان، على سبيل المثال، ولم يعودوا، قرر تشتيت الطلبة في بلدان أوربا وأمريكا، فزاد الطين بلة، كما يقال، لأنه أتاح لهم معرفة تجارب سياسية واقتصادية وثقافية

أخرى، وجعلهم عند المقارنة ببلدهم المعزول الفقير المغلق يشعرون بأن التغيير ضرورة لا تقبل التأخير. فلم يكن ممكنا إيقاف عجلة الزمن وكبح الرغبة في التغيير على جميع المستويات. كان الزمن قد أصدر حكمه على مملكة الظلام وأصبح زوالها مسألة وقت، وأيقن كثيرون أن التغيير قادم اليوم أو غدا.

وفي الوقت نفسه، كان تأثير حركة الاستنارة في أوساط اليمنيين يتسع يوما بعد يوم. وزاد تسرب الكتب وانتقال الأفكار. وقد جعل الراديو قوة الرقابة وحصار الأفكار مستحيلا. فبدأت أجهزة الراديو تتسرب عبر مستعمرة عدن دون أن تنتظر الإذن من السلطات الرسمية. واضطر الإمام نفسه إلى تأسيس محطة إذاعة قوة إرسالها محدودة سنة **1957** للدفاع عن النظام، ولم يعد بإمكانه فرض حظر على استيراد أجهزة الراديو. وبدأ تأثير حركة التحرر العربية يتجاوز الحدود والحواجز وينتشر في أوساط الشباب بخاصة، وبالذات الضباط الصغار، ومن بينهم تكوَّن تنظيم الضباط الأحرار الذين كانت خطابات جمال عبدالناصر من أهم المؤثرات الثقافية عليهم. وهم الذين سينفذون عملية التغيير الجمهوري وسيُسقِطون نظام الإمامة.

تحديث النظام التعليمي

لم يكن في مملكة الظلام أي نظام تعليمي معروف أو معترف به. ويشكو الطلبة الذين خرجوا من اليمن للدراسة في الخارج، سواء في العراق في الثلاثينات أم في لبنان في الأربعينات، من أنهم حين وصلوا لم يكونوا مؤهلين للدراسة في الصفوف المقابلة لسنهم مع طلبة البلد المبعوثين للدراسة فيه، وخضعوا لامتحانات تحديد المستوى. وكان بعضهم أكبر سنا من الفصول التي وضعوا فيها، واحتاج الجميع إلى الدراسة في فصول خاصة لرفع قدراتهم الدراسية حتى ينسجموا مع المنهج الدراسي. فنجح بعضهم بسرعة وأخفق بعضهم وواجهوا صعوبات في مواكبة زملائهم من غير اليمنيين.

وفي مرحلة متأخرة وجدت في صنعاء وتعز مدرستان "ثانويتان" لكن مستواهما لم يكن يساوي حتى المرحلة الابتدائية في النظام التعليمي الجديد وإن كانت بعض المواد التقليدية فيها مثل علوم الدين والنحو أعلى من المرحلة الابتدائية. وأذكر أننا حين تم إدخال النظام التعليمي الحديث في العام الدراسي **1964/1963** المستمد من النظام التعليمي المصري وجدنا أنفسنا نحن الطلبة القادمين من الريف بجانب زملاء أكبر سنا منا بكثير لم ينجحوا في

امتحانات تحديد المستوى، وكانوا يشعرون بتذمر وعدم رضا عن النظام التعليمي الحديث لأنه أنزلهم من المرحلة الثانوية إلى صفوف المرحلة الابتدائية أو إلى صفوف الإعدادية. ووضع القليل منهم في الصف الأول ثانوي. وكنا بحكم صغر السن أكثر قدرة منهم على استيعاب المواد الجديدة مثل الرياضيات والعلوم وغيرها. وأمام احتمالات الفشل غادر أكثرهم الدراسة إلى العمل الوظيفي أو إلى الكلية الحربية وكلية الشرطة اللتين انفتحتا حديثا وبدأتا العمل لتخريج ضباط للاستجابة لحاجة معركة الدفاع عن الجمهورية.

وقد كانت الخطوة الحاسمة في تبني النظام التعليمي الحديث أن المستنيرين القلائل ممن تخرجوا من أوربا وأمريكا ومصر مثل حسن مكي وعبدالغني علي أحمد ومُحَّد سعيد العطار، وزملاء لهم من اليساريين، أقنعوا الرئيس السلال بالطلب من الزعيم العربي جمال عبدالناصر ألا تقتصر مساعدة مصر للجمهورية الوليدة على إرسال القوات العسكرية وبناء الثكنات العسكرية والمساهمة في سد العجز في ميزانية الحكومة التي أثقلتها تكاليف الحرب وشح الموارد، بل أن يكون للمساعدة المصرية جانب حضاري يتمثل في تطوير التعليم وتحسين خدمات الصحة وإنشاء الإدارة الحديثة. وكان رأي هؤلاء أن الجمهورية بهذا التغيير الحضاري تكتسب بمرور الزمن شرعيتها الجديدة في نفوس أبناء الشعب، وتصبح قادرة على الوفاء بوعودها في تحسين ظروف معيشة الشعب اليمني، والقضاء على الفقر والجهل اللذين خلفهما النظام السابق.

وقد استجاب الرئيس جمال عبدالناصر لهذا الطلب في الحال وأدرك مغزاه وأنه يتفق مع فهمه لطبيعة المساعدة المصرية لليمن كي تتجاوز التخلف والبؤس. فوجه ببناء ثلاث مدارس إعدادية ثانوية بشكل طارئ في كل من صنعاء وتعز والحديدة[165]. ولما كان إعداد المعلمين والإدارة المدرسية والكتب المدرسية يحتاج إلى وقت طويل وتدريب، تم الاتفاق مع الحكومة اليمنية على إرسال إدارة مصرية لهذه المدارس الثلاث ومعلمين مصريين أكفاء، وتعميم الكتاب المدرسي المصري، لتكون هذه المدارس نموذجا يتم تطوير بقية النظام التعليمي في الجمهورية وفقا له. وحين بلغت أول دفعة من الطلبة الدارسين في هذا النظام التعليمي الحديث مستوى الحصول على شهادة الثانوية العامة لأول مرة في تاريخ اليمن سنة

---

[165] واعترافا بهذا الدور أطلق على المدرسة التي بنيت في صنعا اسم جمال عبدالناصر بعد سنوات من انسحاب القوات المصرية من اليمن.

1966، وللمساعدة في إكساب هذا النظام ومن يتخرجون منه الاعتراف الدولي، وللاعتراف بشهادات من تخرجوا كي يدرسوا في الخارج دون صعوبات تذكر، جاءت امتحانات الثانوية العامة من مصر، وجلس الطلبة اليمنيون للامتحان مع الطلبة المصريين وتنافسوا معهم في النظام نفسه، وأُرسِلت الإجابات إلى القاهرة لتصحيحها، وجاءت النتائج من هناك لتعلَن في اليمن.

وزيادة في تشجيع التعليم في اليمن وتسريع الحصول على مردودات تساعد في تطوير البلاد قررت مصر قبول جميع من تخرجوا من الثانوية العامة وفقا لهذا النظام الدراسي الحديث في جامعاتها وعلى نفقتها. فكان هذا القرار خطوة شجاعة ألهبت حماسة الطلبة للمثابرة في الدروس والاستعداد لامتحان لم يكن سهلا لأنه يتنافس مع عدد كبير من طلبة مصر، للفوز بفرصة الدراسة في الخارج. وقد سهلت هذه التطورات الاعتراف بشهادات الطلبة اليمنيين في جامعات العالم، وحصل هؤلاء الطلبة فيما بعد على منح للدراسة في كثير من جامعات الشرق والغرب دون الحاجة إلى فرض المرور بامتحانات تحديد المستوى لمعرفة قدراتهم الدراسية. وكانت بوابة لاستقلال النظام التعليمي اليمني فيما بعد عن النظام التعليمي المصري ولكن بعد أن فرض التعليم الحديث وجوده وأصبح مطبَّقا في أنحاء الجمهورية.

وليس الغرض هنا سرد تاريخ النظام التعليمي في اليمن وكيف تطور بمرور الزمن، وإنما الغرض الإشارة إلى القفزة الحضارية الكبيرة التي أحدثتها الجمهورية بنقل اليمن من شيوع الأمية إلى شيوع المدارس، ومن الحرمان من التعليم إلى نشر التعليم، وأصبحت المطالبة تتركز ليس على الحق في التعليم بل على تحسين نوعية التعليم ليواكب العصر، وهذا موضوع آخر في حاجة إلى مناقشة مستقلة لا ينوي هذا الكتاب خوضها.